ملكة سبأ:

نفائس من اليمن القديمة

سليمان وملكة سبأ / يوستش لى سِر، 1650.

Salomon and Queen of Sheba by Eustache Le Sueur, 1650. © Barber Institute of Fine Arts.

التاسع من يونيو حزيران–الثالث عشر من أكتوبر تشرين الأول 2002

المعرض برعاية شركة «باركليز بي أل سي»

تحقيق وتصوير: السيدة حنا بولتن
قسم الصحافة، المتحف البريطاني
ترجمة السيد حميد الكفائي

تعتبر حضارة جنوب شبه الجزيرة العربية، أو ما يعرف اليوم باليمن، في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام، من أكثر الثقافات المجهولة في الشرق الأدنى. فهناك الكثير من الأساطير التي راجت حول غنى هذه الأرض، وعن ملكتها الشهيرة، بلقيس، التي يعتقد أنها حكمت المملكة العربية التجارية، سبأ.

إلا أن علماء الآثار والمؤرخين قد تمكنوا حديثاً من الفصل بين الحقيقة والخرافة، أو على الأقل البدء في عملية الفصل هذه. وقد وردت أقدم إشارة إلى ملكة سبأ في كتاب الملوك بالعهد القديم، حيث يقول الكتاب إن بلقيس وصلت إلى القدس "على رأس قافلة عظيمة"، وقدمت لسليمان هدايا سخية شملت أربعة أطنان من الذهب (مئة وعشرون طالناً)، وكميات كبيرة من التوابل والأحجار الكريمة. وقد أضيفت إلى هذه القصة تفاصيل واجتهادات أخرى كثيرة في العصر الإسلامي وعصر الأحباش (ملوك حِميَر واليمن)، وصارت من أكثر أساطير العالم بقاءً. أما القَصص القرآني فيركز على جزئية محددة من زيارة بلقيس لسليمان، وهي تلك الخاصة بدخولها بهو الحكم ذي الأرضية الزجاجية، إذ لمّا دخلته حسبته لُجّة، أي ماء، وكشفت عن ساقيها مخافة أن يبتل ثوبها. فقال لها سليمان إنه من زجاج. وهنا تقول الأسطورة إن سليمان لمّا أبانت بلقيس عن ساقيها وجد أنهما مكسوتان بشعر كثيف، فابتدرها بلهجة ساخرة قائلاً: "سيدتي إن لك حُسْن الأنثى، لكن الشعر الذي يكسو رجليك شعر رجال. ثم قال إن الساق المُشْعِرة لهي أمر محمود في الرجال، لكن الأنثى المُشعِرة تثير التقزز.

وتمضي الأسطورة فتقول إن بلقيس أحست في هذه اللحظة بأن كبرياءها قد جُرحت، فقررت اختبار سليمان بسلسلة من الألغاز. لكنه أثار دهشتها بأن تمكن من حل جميع ألغازها. وهنا لم تملك بلقيس إلا أن تُسلم مع سليمان للإله الواحد الأحد. وبعد أن نالت كل ما ترغبه من سليمان غادرته عائدة إلى بلادها. وفي الرواية الحبشية، أن سليمان واقع بلقيس فحملت منه، وفي طريق عودتها إلى مملكتها وضعت طفلاً ذكراً هو مينليك، الذي أصبح بعد ذلك مؤسس الأسرة السليمانية.

ولكن ما مدى صحة هذه الروايات؟ ليس هناك في عصرنا الحالي من الآثار القائمة ما ينهض دليلاً على أن لقاءً بين بلقيس وسليمان قد تمّ، أو على وجود هذه الملكة أصلاً. لكن الحفريات الأثرية التي عُثر عليها في الآونة الأخيرة تشير إلى إمكانية التحقق من بعض جوانب هذه القصة. وهذا المعرض يتناول هذه الجوانب ويرمي إلى تسليط الضوء على حضارة اليمن القديم وأرض سبأ، تلك الحضارة التي يكتنفها الغموض وإن كانت لا تنقصها الروعة. يدلل بعض الباحثين على عدم صحة رواية العهد القديم عن بلقيس وسليمان بأن الهدايا التي قدمتها ملكة سبأ من توابل وذهب وأحجار كريمة إنما هي مواد غريبة على بيئة جنوب الجزيرة العربية ولا تنتمي إليها. بيد أن الأمر ليس بهذا التعارض الذي قد يبدو عليه للوهلة الأولى. فالتوابل المشار إليها هي على الأرجح عبارة عن بخور يُشعَل في طقوس دينية خاصة، سواء في دور العبادة أو في ➤

بلاطة لصورة امرأة، في القرن الأول قبل الميلاد. Stela of a Woman. 1st century BC. © British Museum.

يد برونزية منقوشة بالكلمات.
Inscribed bronze hand, 2nd/3rd century AD. © British Museum.

قرط ذهبي.
Gold earring. PS354023. © The British Museum.

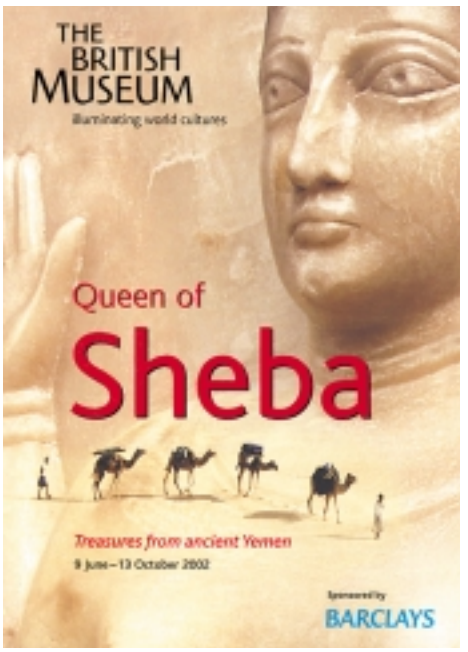

المنازل. وأبرز أنواع هذه البخور هي بخور اللبان والمُرّ، وهما مادتان صمغيتان تفرزهما أشجار اللبان والمر بمجرد إزالة لحائها. وقد عُثر على عدد من المباخر (أواني حرق البخور) في اليمن وقد نُقش على كل منها اسم البخور الذي يُشعَل فيها. أما في ما يتعلق بالذهب، فإن الدراسات الجيولوجية، والتي أُجري أحدثها في "المرازيق" بمنطقة "الجوف" في شمال اليمن، قد أماطت اللثام عن بقايا تجمعات سكنية قديمة أقيمت حول مناجم لاستخراج الذهب. وعن معدات سحق المعادن الخام وطحنها. وقد عُثر على هذه الآثار بالقرب من مناجم تجريبية، وأخرى وُجدت أعلاها عروق المرو (الكوارتز). وبالإضافة إلى هذا، فإن المتحف البريطاني في لندن يحتوي على مجموعة صغيرة من المشغولات الدقيقة المصنوعة من الذهب ذي الجودة العالية، وأقراط وقلائد ومُطرّزات ذهبية من نتاج صناعة راقية، وغير معروفة من قبل، لشغل الذهب وصياغته.

ويمكن مشاهدة نماذج من هذه المشغولات، أو المصوغات، في المعرض. ويُعطي الوصف التفصيلي للنقوش الموجودة في المقابر التي عثر فيها على هذه القلائد والأقراط والأساور والخواتم، لمحة إضافية عن أنواع وأصناف المجوهرات الرائعة التي كان يرتديها رجال ونساء تلك الحقبة على حد سواء. أما بالنسبة للأحجار الكريمة، فإن بعضا منها مثل العقيق الأبيض يوجد في اليمن، بينما قد تكون الأنواع الأخرى قد جُلبت من الهند ومن أرض الصومال. وكان استخدام هذه الأحجار شائعاً في بلاد الشرق الأدنى لقطع الخرز ولعمل الأختام. ويبدو أن الخرز المصنوع من الأحجار الكريمة عالية الجودة والذي عُثر عليه داخل مقابر حكام اليمن القدامى، يبدو، أنه قد أعيدت معالجته بعد نهب هذه المقابر. لكن الكاتب والمؤرخ العربي "الهمداني" الذي عاش في اليمن في القرن العاشر قبل الميلاد يشير إلى العثور على مقابر في جنوب الجزيرة العربية تضم رفاتا مُثقلة بالمجوهرات. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مملكة سبأ ازدهرت في نفس العصر الذي تروي فيه الأساطير قصة الملك سليمان. (إذ يُعتقد أن سليمان حكم مملكة أورشليم خلال القرن العاشر قبل الميلاد، وأن كتاب الملوك في العهد القديم قد كُتب على ما يبدو في القرن السادس قبل الميلاد).

وقد مكّن استئناس الجَمل وترويضه من طي الصحاري الشاسعة التي كانت تباعد بين حضارة الجزيرة العربية وبين حضارة جاراتها في الشرق الأدنى. فقد أثبتت بعض الكشوف الأثرية المتفرقة والمتباعدة وجود صلة بين الجزيرة العربية وبين المشرق، وذلك من خلال أختام ترجع لشخصيات من الجزيرة العربية أو نقوش جدارية عُثر عليها في بعض المناطق من فلسطين. وتؤكد المباخر ذات الشكل المكعب التي استخرجت من هذه المناطق والتي تتطابق تقريباً مع مثيلاتها التي انتقلت من اليمن إلى بادية الشام (سوريا وفلسطين) وبلاد ما بين النهرين، تؤكد، مدى شيوع استخدام البخور العربية . وقد أسهمت الثروة المتولدة عن هذه التجارة الرائجة في انتعاش العمارة والفنون والحرف في شبه الجزيرة العربية . وعلى الرغم من وجود تأثير واضح لحضارة الشرق الأدنى والعالم القديم على حضارة الجزيرة العربية، فإن أنماط ونماذج هذه الحضارة تبقى محتفظة بصبغتها المحلية المميزة. بل إن النقوش تؤكد مدى قدم البيوت شاهقة الارتفاع، والتي تمثل مَعْلماً رئيسياً من معالم الحضارة اليمنية التقليدية. وقد أتاحت لنا الدراسات الأثرية استنباط عناصر الحقيقة التي تتضمنها الروايات عن ملكة سبأ. ويضم المعرض تُحفا تؤيد هذه الاستنباطات، وقد أسهمت الهيئة اليمنية العامة للآثار والمتاحف بالقدر الأكبر من هذه التحف. وتشير جميع هذه القطع الأثرية ومن بينها مباخر ومذابح خاصة بالمعابد القديمة، وتماثيل رائعة من المرمر للملوك أسوان، ونقوش ذات أهمية تاريخية لتمثال رائع من البرونز محفوظ في حالة جيدة "لمعديكرب" أحد حكام مملكة سبأ الأوائل، تشير هذه القطع الأثرية جميعها إلى مدى غنى حضارة وتقدم حضارة اليمن القديم. كما يضم المعرض قطعاً أثرية هامة عثرت عليها بعثة تابعة للمؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان في منطقتي مأرب وتامنا عامي 1951 و 1952.

ويتضمن المعرض كذلك مجموعة منتقاة من الأعمال الفنية المرتبطة بأسطورة بلقيس ملكة سبأ، ومن بينها لوحة بالألوان المائية لم يُكشف عنها من قبل، رسمها سير إدوارد جون بوينتر (1836-1919). وتمثل هذه اللوحة في الواقع نسخة من رائعته التي أبدعتها ريشته بعد ذلك بعنوان (زيارة ملكة سبأ للملك سليمان). وقد درس بوينتر اكتشافات سير أوستن هنري لايارد الأثرية في مملكة آشور وذلك لتساعده في بناء تصور جديد عما كان يبدو عليه قصر سليمان. ويقتني لايارد نفسه لوحة عن الموضوع ذاته رسمها الفنان الهولندي لامبرت سوستريس (1515/20-1570) والتي تكرم المعرض القومي للفنون بأعارتها للعرض في المعرض.

مسلة من حجر الكالسيت، بين القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الأول بعد الميلاد.

Calcite stela -1st century BC/1st century AD. © British Museum.

كما يتضمن المعرض لوحات لفناني عصر النهضة وما بعده، ومطبوعات ونماذج للفنون الجميلة جميعها من مقتنيات المتحف البريطاني. ومن الإسهامات التي سيشارك بها متحف أشمولين ومعهد باربر والأكاديمية الملكية الاسكوتلندية ومتحف فيكتوريا وألبرت. ويُقام في إطار المعرض برنامج للأنشطة التعليمية برعاية شركة "باركليز بي أل سي" يشمل حفلا موسيقيا في الهواء، الطلق وأياما دراسية ودروساً في طريقة التعامل مع الآثار، وحوارات حول المعارض الفنية. ■